

الفصل الخامس

النثر وتطوره

١

تطور الخطابة

كان ظهور الإسلام إيذاناً بتطور واسع في الخطابة ، إذ اتخذها الرسول صلى الله عليه وسلم أداة للدعوة إلى الدين الحنيف طوال مقامه بمكة قبل الهجرة حيث ظل ثلاثة عشر عاماً يعرض على قومه من قريش وكل من يلقاه في الأسواق آيات القرآن الكريم ، وهو في أثناء ذلك يخاطب في الناس داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، محاولاً بكل طاقته أن يوقظ ضميرهم بما يصور لهم من قوة الكائن الأعلى مدبر الكون ومنظمه ، الذي لم يخلقهم عبثاً ، وإنما خلقهم ليعبده حق عبادته ، وليستشعروا كل ما يمكن من الكمالات الروحية والاجتماعية والإنسانية ، حتى تتم لهم السعادة في الدنيا والآخرة .

وهاجر الرسول صلوات الله عليه إلى المدينة ، فاتصلت خطابته ، واتسعت جنباتها ، بما أخذ يشرع للمسلمين ويرسم لهم من حدود دولتهم ونظم حياتهم التي ينبغي أن تقوم على الإخاء والمساواة والتعاون في سبيل الحق والخير ، وهو في تضاعيف ذلك يأخذهم بأداب رفيعة من السلوك السامى ، مبيئاً لهم معاني الإسلام الروحية التي تقوم على معرفة الله الواحد الأحد والصلة به ، كما تقوم على معرفة العمل الصالح وأن وراء هذه الحياة حياة أخرى يحاسب فيها الإنسان على ما قدّمته يده ولو كان مثقال ذرة . وما يزال يعرض أوامر الدين ونواهيه ، واضعاً الحلول لكثير من المشاكل الدنيوية ، كمشكلة الرقيق ومشكلة توزيع الثروة ومشكلة العلاقات بين الرجل والمرأة ، وغير ذلك من مشاكل حُلّت بما يحقق سعادة الجنس البشرى وهناءته .

وعلى هذا النحو كانت خطابة الرسول عليه السلام متممة للذكر الحكيم ، ومن ثم كانت فرضاً مكتوباً في صلاة الجمع والأعياد ثم مواسم الحج ، وتحفظ كتب الحديث بما اتخذها فيها من سنن وتقاليد^(١) ثبتت إلى اليوم . وبينما كانت تسبق الخطابة الصلاة في الجمع كانت الصلاة تسبقها في الأعياد ، وهي تتوزع على خطبتين يقف فيهما الخطيب على منبر أو نَشْر من الأرض ، وقد اعتمد على قوس أو سيف أو عصا . ويُقبَّل على الناس مسلماً . وتبدأ الخطبة الأولى في الجمع بحمد الله تعالى وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله ، ويؤثّر عن الرسول أنه كان يقول في فاتحة هذه الخطبة : « الحمد لله نعمده ، ونستعينه ، ونؤمن به ، ونتوكل عليه ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، ومن يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يضلل الله فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له »^(٢) . وعادة يتلو الخطيب في الخطبة الأولى لصلاة الجمعة بعض آي القرآن الكريم ، حتى يستلهمها في موعظته . وإذا انتهى منها جلس ، ثم يقوم للخطبة الثانية ، وفيها يكثّر من الدعاء ، ويقال إنه كان آخر دعاء أبي بكر في الخطبة الثانية : « اللهم اجعل خير زمانى آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أيامى يوم لقاتك » وكان آخر دعاء عمر : « اللهم لا تدعنى فى غمسة ، ولا تأخذنى فى غيرة ، ولا تجعلنى مع العافين »^(٣) . ولا تُفتمتخ خطبتا العيدين بالحمد لله إنما تفتتح بالكبير ، فيكبر الخطيب فى أولهما سبع تكبيرات وفى ثانيهما خمس تكبيرات .

وطبيعى أن تقضى هذه الخطابة على كل لون قديم من الخطابة الجاهلية لا يتفق وروح الإسلام ، ولا نقصد سجع الكهّان الذى كان يرتبط بدينهم الوثنى فحسب ، بل نقصد أيضاً خطابة المنافرات ، فقد نهى الإسلام عن التكاثر بالآباء والأنساب والأحساب ، وإن ظلت لذلك بقية فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم حين كانت تنفد عليه وفود العرب ، على نحو ما نعرف عن وفد تميم وقيام خطيبهم عطارد بن حاجب بن زُرارة بين يديه مفاخرأ بقومه ،

(١) انظر فى صلاة الجمع والعيدين كتب (٢) عيون الأخبار ٢/٢٣١ .
(٣) انظر العقد الفريد ٣/٢٢٢ .

الحديث مثل صحيح البخارى ومسلم .

وقد نَسَب له الرسول ثابت بن قيس بن الشماس، فرد عليه مستوحياً هدى الإسلام، ولم يلبثوا أن استجابوا لله ولرسوله^(١).

ونمضى في عصر الخلفاء الراشدين، فتكثرت بجانب خطب الجمع والأعياد المواقف التي تجلت فيها براعة هؤلاء الخلفاء، كموقف أبي بكر حين انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى وموقفه يوم السقيفة، فقد درأ في الموقفين جميعاً الشعث الذي كاد يؤدي بالجماعة، وكذلك موقفه حين ارتد كثير من العرب وامتنعوا عن أداء الزكاة. وكمن خطيب وقف حينذاك يحض قومه على الثورة أو يحثهم على الطاعة. ولا بد أن نلاحظ أن انتشار الإسلام في الجزيرة أعد منذ أول الأمر إلى أن تتكاثر خطب الجمع والأعياد، إذ كانت كما قد منّا فرضاً مكتوباً على المسلمين في كل مكان يجلتونه من الجزيرة.

ثم تكون الفتوح، ويخطب أبو بكر في الجيوش الغازية يحض على الجهاد وتشر الدين الخفيف في أطباق الأرض. وترتفع أصوات القواد بالخطابة في كل قطر حاثين الجنود على الصبر في القتال حتى الاستشهاد طلباً لما عند الله من الثواب. ويخيل إلى الإنسان كأنما ملك كل منهم من قلوب جنوده بيانه وبلاغته مالا تملكه الدنيا بخذا فيهما. ولا نغلو إذا قلنا إن بلداً من بلدان الفرس في العراق وإيران وبلدان الروم في الشام ومصر لم يفتح إلا بعد أن فتحته خطبة أحد هؤلاء القواد، كخطبة المغيرة بن شعبان في القادسية^(٢)، وخالد بن الوليد في اليرموك^(٣)، وعتبة بن غزوان في فتح الأبلّة، ونحن نكتفي بقطعة من خطبة عتبة إذ يقول^(٤):

«أما بعد فإن الدنيا قد تولت حذاء^(٥) مدبرة، وقد آذنت أهلها بصرم، وإنما بقي منها صبابة كصبابة الإناء يصطبها^(٦) صاحبها، ألا وإنكم منقولون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا منها بخير ما يحضركم».

ويتولى عمر، فيكثر من الخطابة لا في الجمع والأعياد ومواسم الحج فحسب بل مع كل حادث، ومع كل خبر يأتيه بفتح. وقد سار على هدى أبي بكر

(١) تاريخ الطبري ٢/٣٧٨.

(٢) الطبري ٣/٣٧.

(٣) الطبري ٢/٥٩٢.

(٤) البيان والتبيين ٢/٥٧.

(٥) حذاء: سريفة الإديار.

(٦) يصطبها: يشرها. والصبابة: بقية الماء.

في استشارة أصحابه في كل مهمم^١ ، وكل ما يجد من تشريع ، وخاصة في معاملة الأمم المفتوحة . وكان هذا بدوره عاملاً من عوامل نمو الخطابة في العصر ، إذ كان الحكم ديمقراطياً ، وكان من حق كل شخص أن يخاطب مصوراً وجهة نظره ، وتسمح عمر لخطابة الوفود في مجالسه ، تستميج لأقوامها وتذكر حاجتها ، واشتهر الأحنف بن قيس سيد تميم وأحد قواد الفتوح بغير خطبة ألقاها بين يديه^(١) .

ولم تقف الخطابة الدينية في هذا العصر عند الجزيرة ، فقد أخذت تحل مع المسلمين في كل بلد فتحوها ، وكان هذا بدون شك عاملاً من عوامل نموها ، إذ تكاثرت من يردّونها ومن يحسنون حوكها وصياغتها مستلهمين القرآن الكريم وخطابة الرسول فيما يعظون الناس به من مواعظ حسنة ، على نحو ما أثر عن عبد الله بن مسعود في إحدى مواعظه ، وفيها يقول لأهل الكوفة^(٢) :

« أصدق الحديث كتابُ الله ، وأوثق العُرَى كلمة التقوى ، وخير المثل ملّة إبراهيم ، وأحسن السنن سنة محمد صلى الله عليه وسلم ، وشرّ الأمور مُحدثاتها ، وخير الأمور عزائمها ، ما قلّ وكفى خير مما كثر وأهمل . . . خير الغنى غنى النفس . الحمر جمع الآثام . . . أعظم الخطايا اللسان الكذوب . سياب المؤمن فسق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه معصية . . . مكتوب في ديوان المحسنين من عتق عُقى عنه . السعيد من وعظ بغيره . . . أحسن الهدى هدى الأنبياء » .

وفي هذين الاتجاهين الكبيرين من المواعظ والحض على الجهاد مضت الخطابة طوال عصر عمر والسنوات الأولى من خلافة عثمان ، حتى إذا أشعل الثوار عليه في الكوفة ومصر نار الفتنة أخذت الخطابة فيها مكانها ، إذ وقف أمثال الاشر النخعي في الكوفة ومحمد بن أبي بكر في مصر يؤلبون الناس عليه . وتتوالى الحوادث ، ويُقتل عثمان ، ويتولّى على بن أبي طالب مقاليد الخلافة ، وتجتمع السيدة عائشة وطلحة والزبير ، ويقررون الخروج عليه . ويقصدون البصرة ، ويستجيب أهلها لهم . فيضطّرّ على إلى أن يتبعهم ، وينزل الكوفة ، وتكون موقعة الجمل

(٢) البيان والتبيين ٥٦/٢ .

(١) انظر البيان والتبيين ١٤٤/٢ .

المشهوره ، وفيها ينتصر على^١ ، وتم له بيعة أهل العراق .

وقبل هذه الموقعة وفي أثناءها تكثرت الخطب بين أنصار علي وخصومه ، فهؤلاء يدعون إلى طاعته وأولئك يدعون إلى منابذته ، وفي تاريخ الطبرى من هذه الخطب كثرة وافرة ، ومن يذكرهم بين من ثبّطوا الناس عنه أبو موسى الأشعري^(١) ، أما من استنفروا الناس له فكثيرون ، وعلى رأسهم الأشعث ابن قيس والأشتر النخعي وزيد بن صوحان وأخوه سيّحان .

وانتدب على^٢ أهل العراق لقتال معاوية وأهل الشام ، فخرجوا معه إلى صِفِّين على حدود الفرات حيث التقوا بمعاوية وجنوده ، وفي هذه الأثناء تتكاثر الخطب كثرة مفرطة وخاصة في صفوف علي وأصحابه ، وكان هو نفسه خطيباً مفوهاً . وكان بجيشه غيرُ خطيب من أمثال من ذكرناهم آنفاً وأمثال عمار بن باسر وقيس بن سعد بن عبادة وعدى بن حاتم الطائي وعمرو بن الحمق وشبث بن ربعي^٣ . وقبل اندلاع الحرب كان يتبادل على ومعاوية الوفود ، وكان يخطب غير واحد بين أيديهما ، وعبثا تحاول الوفود لمّ الشعب ، ويُفضّضى الأمر ، وتنشب الحرب ويخطب معاوية محرّضاً أصحابه . ومن رؤس خطبائه حينئذ عمرو بن العاص .

وتستمر المعركة وترجح كفة علي وجيشه رجحاناً واضحاً ، فياجأ معاوية وأهل الشام إلى الخديعة . إذ يرفعون المصاحف على أسنّة رماحهم ، مطالبين بالاحتكام إلى كتاب الله على يد محكّمين يستهدون بآيه . ويُغمّد القُرّاء في جيش علي سيفوفهم ، ويتبعهم الناس ، ويمانعهم علي . فيرددونه بأن يُصبح مصيره مصير عثمان ، وينزل على إرادتهم ، ويُختار أبو موسى الأشعري عن أهل العراق وعمرو بن العاص عن أهل الشام . وفي أثناء رجوع علي بجيوشه إلى الكوفة ، يتبين كثير من جنده أنهم قد خدعوا ، ويتلومون علياً لأنه قبل التحكيم ، ويعظم الخلاف والشجار بين أصحابه ، ويخطب فيهم . ويتكاثر الخطباء بين محبّي التحكيم ومنقّر منه ، ويخرج عليه فريق كبير من جيشه وينزلون معسكراً خاصاً بهم في حرّ وراء بالقرب من الكوفة . فيسمون لذلك بالحرورية ، أما الاسم الشامل الذي جمعهم فهو الجوارح .

ويحاول علي[ؑ] وعبد الله بن العباس أن يردَّ أهم إلى سواء السبيل، فتقوم بينهما وبينهم مناظرات في مسألة التحكيم يكون عمادها الجدل المستمد من نصوص القرآن والحديث، وبذلك يتعرف هذا العصر المناظرة الشفوية، بل إنها لتتفجر تفجراً. ونحن نورد طرفاً من مناظرة ابن عباس لهم مما احتفظ به الطبري، وهو يجري على هذه الصورة^(١):

« راجعهم ابن عباس، فقال: ما نعمتم من الحكيمين، وقد قال الله عزَّ وجل: (إن يريدوا إصلاًحاً يوفى الله بينهما)^(٢) فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم؟. فقالت الخوارج: قلنا أمّا ما جعلت حكّمه إلى الناس وأمرّ بالنظر فيه والإصلاح له فهو إليهم كما أمر به، وما حكّم فأفضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه، حكّم في الزاني بمائة جلدة وفي السارق بقطع يده، فليس للعباد أن ينظروا في هذا. قال ابن عباس: فإن الله عز وجل يقول: (يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ)^(٣). فقالوا له: أو تجعل الحكم في الصيد والحدّث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم في دماء المسلمين؟! . وقالت الخوارج: قلنا له: فهذه الآية بيننا وبينك، أعدل عندك ابن العاص وهو بالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا فإن كان عدلاً فلنسنا بعدول ونحن أهل حرّبه، وقد حكّمتم في أمر الله الرجال، وقد أمضى الله عزَّ وجلَّ حكّمه في معاوية وحزبه أن يُقتلوا أو يرجعوا^(٤) وقبل ذلك ما دعوناهم إلى كتاب الله عزَّ وجلَّ فأبوه. ثم كتبتم بينكم وبينه كتاباً، وجعلتم بينكم وبينه المودعة والاستفاضة^(٥). وقد قطع عزَّ وجلَّ الاستفاضة والمودعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة الإلّمن أقرّ بالجزية». ولما لم يسمع الخوارج ولم يطيعوا اضطُرَّ عليُّ إلى حربهم، وقتل بهم فتكاً ذريعاً في موقعة النهروان. وكانوا يظهر ون استبسالا شديداً، يدفعهم إلى ذلك

(١) الطبري ٤٧/٤ .

(٢) الآية في الصلح بين الزوجين وتماها : (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفى الله بينهما).

(٣) الآية في حكم قاتل الصيد وهو محرم، وتماها: «يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما

قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم).

(٤) يشير الخوارج إلى قوله تعالى: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بنت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تفسى حتى تنى إلى أمر الله فإن قامت فأصلحوا بينهما بالعدل).

(٥) الاستفاضة: المودعة.

خطباؤهم من أمثال قائدهم عبد الله بن وهب الراسبي . وحرّ قوص بن زهير السعدي والمُسْتورد بن عُلْفَةَ، ومن يرجع إلى خطبهم يجدها تنفذ حماسة وحميةً من مثل قول ابن وهب في بعض خطبه^(١) :

« أما بعد فوالله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن ، ويستنبئون إلى حكم القرآن أن تكون هذه الدنيا – التي الرضا بها والركون إليها والإيثار إياها عناء وتَسَار^(٢) – آثَرٌ عندهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بالحق وإن مَن^(٣) وضُرٌّ، فإنه من يُمَسِّنَ وَيُضَرِّرَ في هذه الدنيا فإن ثوابه يوم القيامة رضوانُ الله عز وجل والخلود في جناته . »

ويتنهي التحكيم بمهزلة خلع على ، وتمتد يد آئمة من أيدي الخوارج إليه في الظلام ، فطعننه طعنة تَجَلَاء . وَيُسَلِّمُ الحسن ابنه الأمر راضياً إلى معاوية ، ويبايعه المسلمون كافة .

وأكبر الظن أنه قد اتضح من كل ما قدمنا كيف نمت الخطابة في هذا العصر نمواً واسعاً، بتأثير الإسلام من جهة وتكاثر الأحداث وتتابعها من جهة ثانية . وليس هذا كل ما يلاحظ فيها ، فقد دارت حول معاني القرآن الكريم وخطابة الرسول وأحاديثه ، وهي معان جديدة لم يكن للعربية بها عهد . معاني هذا الدين الحنيف الذي بعث لغتنا ونشرها بعثاً جديداً ، والذي مرتها ودلّلها لكي تؤدي الرسالة النبوية وكل ما تحمل من مواعظ وتعاليم . وقد أخذ كل خطيب يحمل قبساً من هذه التعاليم والمواعظ يستضيء به في كل ما يحاطب به الناس ابتغاء التأثير عليهم ولباوغ ما يريد من أداء الخطبة الدينية الخالصة في أيام الجمع والأعياد ومواسم الحج وأختها التي تدعو إلى الجهاد والحض على قتال الأعداء . ولعله من أجل ذلك أصبح التحميد سنّة في كل خطبة . حتى الخطبة السياسية ، وكانوا يُسمّون كل خطبة تخلو منه بشراء ، كما كانوا يسمون كل خطبة تخلو من اقتباس آي القرآن الكريم والصلاة على الرسول شَوْهاً^(٤) .

(٣) من : قطع ومجر .

(٤) البيان والتبيين ٦/٢ .

(١) الطبري ٥٤/٤ .

(٢) تبار : هلاك .

وهناك أخبار كثيرة تدل على أن الخطباء كانوا يزورون كلامهم ويُعدونه على أنفسهم إعداداً طويلاً ، ثم يُلقونه على الناس ، حتى لقد رُوِيَ ذلك عن عمر بن الخطاب (١) . وكان الخطيب يستشهد أحياناً ببعض الأمثال ، أو ببعض أبيات من الشعر تؤكد المعنى الذي يريد أن يصبّه في نفوس سامعيه صباً ، على نحو ما نجد في خطبة لأبي بكر في الأنصار (٢) .

وإذا كنا قد لاحظنا في الجزء الأول من هذا التاريخ للأدب العربي غلبة السجع على خطباء الجاهلية فإننا نلاحظ في هذا العصر أنه كاد ينحسر تماماً عن الخطابة ، إلا بقايا ظلت في خطابة الوفود حين كانت تتقدم على الخلفاء . يقول الجاحظ : « كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين ، فتكون في تلك الخطب أسجاع كثيرة » (٣) ، وبقية أخرى استظهرها بعض المتنبيّة في حروب الردة مثل مسيلمة الكذاب متنبئ الجاهة ، ويقول الجاحظ إنه « عنداً على القرآن فسلبه وأخذ بعضه وتعاطى أن يفارنه » (٤) . وما يُروى له - إن صحَّ - قوله (٥) :

« سمع الله لمن سمع ، وأطمعه بالخير إذا طمع ، ولا زال أمره في كل ما سرّ نفسه يجتمع ، رأكم ربكم فحياًكم ، ومن وحشة خلاًكم ، ويوم دينه أنجاكم ، فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار ، لا أشقياء ولا فجار ، يقومون الليل ويصومون النهار ، لو بكم الكُبار . رب الغيوم والأمطار . »

ونستطيع أن نقول إن السجع في خطابة هذا العصر كان شيئاً عارضاً ، إذ كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يسجع في خطابه ، وكان يستنفر منه حين يلهج به أحد محدثيه (٦) ، كراهيةً لثبته بالكهّان في سجعهم ، وسار على هديه الخلفاء الراشدون وغيرهم من جلة الصحابة ، يدلّ على ذلك ما يُروى من أن عمر بن الخطاب سأل صحاراً العبدي حين قدم عليه من غزوة مكران الفارسية عن شأنها وشأن العرب هناك ، فأجابته : « أرض ستملّها جليل ، وماؤها وشل (٧) »

- | | |
|--|---------------------------------------|
| (١) الطبرى ٤٥٦/٢ وقارن بكلمة ليمان | (٤) الحيوان ٨٩/٤ |
| ابن عفران في البيان والتبيين ٣٤٥/١ وعيون | (٥) الطبرى ٤٩٨/٢ |
| الأخبار ٢٣٥/٢ . | (٦) صحيح مسلم (طبع الآستانة) ١١١/٥ |
| (٢) زهر الآداب ٣٢/١ | وموطأ مالك (طبع حجر بالقاهرة) ١٩٢/٢ . |
| (٣) البيان والتبيين ٢٩٠/١ . | (٧) وشل : قليل . |

ومرّها دَقَلٌ^(١)، وعدوها بطل، وخيرها قليل وشرها طويل، والكثير بها قليل. إن كثر الجند بها جاعوا، وإن قتلوا بها ضاعوا». وقد أنكر عمر عليه هذا السجع فقال له: أسجّاع أنت أم مخبر^(٢). وكان الخلفاء بعد عمر يُنكرون السجع على محدّثيهم. وأمامنا خطب القوم، وهي تخلو وتخلو تماماً من السجع إلا ما جاء عفواً في الحين البعيد بعد الحين. ولكنهم إذا كانوا قد أهملوا السجع فإنهم لم يهملوا جزالة اللفظ ورضانته، بل لقد كان همّ كل خطيب أن يحسن قوله وأن يصوغه صياغة رائعة.

وأخرى تلاحظُ على الخطابة في هذا العصر بالقياس إلى الخطابة الجاهلية، فإن الخطابة الأخيرة لم تكن ذات موضوع محدد، ومن ثم كانت تأخذ شكل أقوال متناثرة لارباط بينها، أما في هذا العصر فقد أصبح للخطابة موضوع واضح يجول فيه الخطيب ويصوّل، إذ يحدث الناس واعظاً، أو يعرض عليهم حدثاً محدداً من أحداث الإسلام، بحيث نستطيع أن نقول إن الخطبة أصبحت ذات موضوع، تلمّ بأطرافه وتفصيله. وبذلك كله نهضت الخطابة ونهض معها النثر نهضة واسعة، فقد أخذ الخطباء يوسعون طاقته بما يحملونه من معاني الإسلام وما يبسطون في هذه المعاني ويولّدون ويفرّعون. ونحن نقف قليلاً عند خطابة الرسول وخطابة خلفائه الراشدين لتتضح صور التطور التي وسّعت جنبات النثر وزادت في معانيه ومادته بأداة البيان الكاملة وأسباب البلاغة الوافرة.

٢

خطابة الرسول صلى الله عليه وسلم

على هدى القرآن الكريم كان محمد صلوات الله عليه يخطب في العرب ليخرجهم من ظلمات الوثنية إلى نور الهداية السماوية، وقد أوتى من اللسان

والبيان والتبيين ١/ ٢٨٥.

(١) دقل: ردى.

(٢) انظر في هذا الخبر الطبرى ٣/ ٢٥٧.

والفصاحة ما مَلَكَ به أزمَّة القلوب . وكأَنما كانت المعاني والأساليب موقوفة بشخصها بين يديه ، ليختار منها ما تهش له الأسماع وتُصنَعى له الأفتدة . وقد ظل طوال مكثه بمكة يتلو على قريرش ومن يلقاه في الأسواق كتاب الله حيناً ، وحيناً آخر كان يخطب في نفس معاني القرآن المكية متحدثاً عن رسالته ، وداعياً إلى وحدانية الله مبيناً أنه يهيم على الناس في أعمالهم وأنه سيعيهم يوم القيامة ، ليجزى بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً، حتى إذا انتقل إلى المدينة فُرضت الخطابة - كما قدمنا - في صلاة الجمع والأعياد ثم في مواسم الحج . وكان ما يزال يخطب في الأحداث التي تُلِم . وفي أخباره أنه كان يطيل الخطبة أحياناً إلى ساعات^(١) غير أن كتب الأدب والتاريخ لم تحتفظ من هذا التراث القيم إلا بأطراف قليلة ، ولعل مرجع ذلك إلى طول المسافة بين خطبته وعصر التأوين فضاعت أو سقطت من يد الزمن إلا بقايا قليلة .

وأكثرُ هذه البقايا مما خَـطَب به عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة ، وهو فيها يتطابق مع آي القرآن التي كانت تنزل عليه ، إذ نراه تارة واعظاً ، وتارة مشرعاً ، وقد يجمع بين الطرفين من الوعظ والتشريع في نسيج بلاغي رائع . ونحن نسوق أول خطبة خطبها بالمدينة حين صلى بالناس في دخوله إليها صلاة الجمعة ، وهي تمضي على هذه الشاكلة^(٢) :

« الحمد لله أحمدوه وأستعينه وأستغفره وأستهد به وأؤمن به ولا أكفره وأعادي من يكفروه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل وقلدة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان ودنو من الساعة وقرب من الأجل . من يطلع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد عصى وفرط وضل ضلالاً بعيداً . وأوصيكم بتقوى الله ، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله . فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكراً . وإن تقوى الله ، لمن عمل به على وجل وخافة من ربه ، عاونُ صدق على ما تبغون من أمر الآخرة . ومن يصلح الذي بينه وبين الله من

(١) إيجاز القرآن للباقلاني ص ٦٣ . (٢) الطبري ١١٥/٢ .

أمره في السر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدّم ، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً . ويحذركم الله نفسه ، والله رءوف بالعباد . والذي صدق قوله ، وأنجز وعده لا خاسف لذلك ، فإنه يقول عز وجل : (ما يُبدّل القول لدىّ وما أنا بظلام للعبيد) . فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله ، في السر والعلانية (ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويضعف له أجراً) . ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً . وإن تقوى الله يوقى مقتته ويوقى عقوبته ويوقى سخطه ، وإن تقوى الله يبيض الوجوه ، ويرضى الرب ، ويرفع الدرجة ، خذوا بحظكم ، ولا تفرطوا في جنب الله . قد علمكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه ، (وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم)^(١) وسماكم المسلمين (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة) ولا قوة إلا بالله . فأكثروا ذكر الله ، واعملوا لما بعد اليوم . فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يتكف الله ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ، ولا قوة إلا بالله العظيم .

والخطبة موعظة رائعة ، يستهلها الرسول الكريم بتقرير وحدانية الله وأنه أتم نعمته على الناس بإرساله إليهم كى يخرجهم مما هم فيه من غواية وضلالة ويدخلوا في رعايته الإلهية ، فلا يعملوا عملاً بدونه . ليتركوا إذن الوراثة الضالة والوسط المشقى على الملأك ويجمعوا على هدى الله وتقواه ، وليستشعروه في السر والعلانية فإنه يعلم خائنة الأعين وما يستكن في الصدور ، وليقدّموا من خشيته وطاعته ما يكفرون به عن سيئاتهم وتبيض به وجوههم يوم الحساب حتى يدخلوا في جنّاته . إنه يوم ما بعده مستعجب ، فإما الجنة وشفيعتها العمل الصالح ، وإما النار وبئس القرار . ويدفعهم دفعاً إلى الجهاد في سبيل الله ونشر دعوة الحق والخير ، فقد اجتباهم واختارهم ليضطلعوا بأمانة الرسالة المحمدية ، ولينشروها في أطراف الأرض . والرسول في كل ذلك يستوحى القرآن وآياته ، وهي تقف

(١) اجتباكم : اختاركم .

منارات في موعظته ، يستمد من إشعاعاتها ما يضيء به كلامه . بل إن وراء هذه المنارات منارات أخرى من هدى القرآن ، بحيث نستطيع أن نرد كل موعظته إلى ينابيع الضوء التي تفجرت منها ، إذ كانت تسيل في نفسه ، بل كانت تشع بمعاني نورها ، كما يشع نور الشمس في السماء . وكان أحياناً ينتقل في سرعة من مثل هذا الوعظ ومعانيه الروحية إلى تشريعات يتم بها قيام هذا المجتمع الإسلامي ويسود على كل ما حوله ، تشريعات قوامها مصلحة الجماعة وأن يعيش المسلم متعاوناً متضامناً في سبيل الخير ، وهو خير تطبيع عليه الجنة بنعيمها الخالد ، خير يكفل سعادة البشرية ، ومن أروع ما يصور ذلك خطبته عليه السلام في حجة الوداع ، وهي تجرى على هذا النمط (١) :

« الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له . ومن يضل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . أوصيكم - عباد الله - بتقوى الله ، وأحذثكم على طاعته ، وأستفتح بالذي هو خير . أما بعد أيها الناس ! اسمعوا مني أبيعن لكم ، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا . أيها الناس ! إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ، إلى أن تلقوا ربكم . كحُرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمن عليها . وإن ربا الجاهلية موضوع (٢) ، وإن أول رباً أبدأه ربا عمى العباس ابن عبد المطلب . وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . وإن مآثر الجاهلية موضوعة ، غير السدانة (٣) والسقاية (٤) . والعمد قود (٥) ، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية . أيها الناس ! إن الشيطان قد ينس أن يعبد في أرضكم هذه ، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون

(١) البيان والتبيين ٣١/٢ وانظر السيرة النبوية لابن هشام (طبعة الحلبي) ٢٥٠/٤ والعقد الفريد ٥٧/٤ .
 (٢) الدانة : خدمة الكعبة .
 (٣) السقاية : سقاية الحاج .
 (٤) العمد : القتل المتمد . القود : قتل القاتل بمن قتل .
 (٥) موضوع : ساقط ومحرم .

من أعمالكم . أيها الناس ! (إنما النسي)^(١) زيادة في الكفر يُصلُّ به الذين كفروا يجلِّونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواظبوا عدة ما حرم الله فيحلِّوا ما حرم الله . إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم) : ثلاثة متواليات وواحد فترّد . ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس ! إن لنسائكم عليكم حقاً ، ولكم عليهن حق . لكم عليهن أن لا يُوطِئُنَّ فُرُشَكُمْ غيركم ، ولا يدُخلُنَّ أحداً تكهونهن بيوتكم إلا بإذنكم . ولا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعصواوهن^(٢) وتمجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح^(٣) . فإن انتهين وأداعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وإنما النساء عندكم عوان^(٤) ، لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء ، واستوصوا بهن خيراً ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد : أيها الناس ! إنما المؤمنون إخوة . ولا يحل لامرئٍ مسلمٍ مالٌ أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فلا ترجعنَّ بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقابَ بعض . فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده : كتاب الله : ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس ! إن ربَّكم واحد وإن أباكم واحد . كلكم لآدم ، وآدم من تراب . أكرهكم عند الله أتقاكم . إن الله عالم خبير . ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . قالوا : نعم ، قال : فليبلغ الشاهد الغائب . أيها الناس ! إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، فلا تجوز وصية لوارث في أكثر من الثلث . والولد للفراس وللعاهر الحجر^(٥) . من ادعى إلى غير أبيه أو تولَّى غير مؤاليه فعليهن لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ،

(٤) عوان : جمع عانية وهي الأسيرة ، أي هن عندكم بمنزلة الأسيرات .
(٥) الفرّاش : أي لصاحبه . ولعاهر الحجر : أي أن هذا مقضى به رغم أنها أو امه ويشير إلى رجها .

(١) النسيه : تهر المحرم كانوا يحرمونه عاماً ، ويحلونه عاماً آخر إن أرادوا الإغارة ، فيقولون إنه بعد شهر صفر ويؤجلونه .
(٢) تعصواوهن : تصيتوا عليهن .
(٣) الضرب غير المبرح : الضرب الخفيف .

لا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ^(١) وَلَا عَدْلٌ^(٢). وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ». وواضح أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكذب بل يُلِيمُ بالحمد لله والشهادة والوصية بالتقوى حتى انتقل ببيِّن طائفة من التشريعات الإسلامية التي أقامها الدين الحنيف حدوداً بين حياة العرب في الجاهلية وحياتهم في الإسلام ، فقد كانوا مفككين متنافرين يتحاربون دائماً طلباً للأخذ بالثأر ونهباً للأموال . وجمعهم الإسلام تحت لوائه في جماعة كبرى متآخية متناصرة لا يبيِّنُ بعضها على بعض . ولكي يقضى على كل سبب للحرب بينهم رَدَّ دَمَ القَتِيلِ إلى الدولة فهي التي تعاقب عليه ، ولكي يستأصل هذا الداء دعا إلى التنازل عن حق الأخذ بالثأر القديم ، وحرَّم النهب والسلب تحريماً قاطعاً مشدداً فيه العقوبة .

والرسول يفتتح في الخطبة أوامر الإسلام ونواحيه بإعلان أن دماء المسلمين وأموالهم حرام ، وأن على كل من كانت عنده أمانة أن يردَّها على صاحبها ، وأن على كل مسلم أن يترعى أخاه في ماله . فلا يأخذ منه شيئاً إلا بالحق ، ومن ثم حرَّم الربا ، وبدأ بعشيرته وتاجرها الموسر العباس بن عبد المطلب فأسقط عن رقاب المدنيين له ربا . وعلى نحو ما أسقط الربا أسقط دماء الجاهلية ، فليس لمسلم أن يثار لقتيل له ، وبدأ بعشيرته فأسقط دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . ولم يُبق من مآثر الجاهلية شيئاً سوى خدمة الكعبة وسقاية الحجيج . وأوجب في قتل العمد القود . ولكن الدولة هي التي تقوم به . وبذلك قضى الإسلام على حروبهم الداخلية . وقد جعل في القتل شبه العمد مائة بعير . كل ذلك ليحفظ للجماعة وحدتها ويسود بين أفرادها السلام والوثام .

ويحذّر الرسول من الشيطان وغواياته ، محرماً للتلاعب بالأشهر الحرم ، واضعاً تقويماً قمرياً يتألف من اثني عشر شهراً ، منها أربعة حرُّمٌ : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب . ويرفع من شأن المرأة ومعاني علاتها بزوجها ، فيجعل لها حقوقاً وعليها واجبات ، وفي الطرفين جميعاً يَحْظُ لها كرامتها كما يَحْظُ لزوجها نفس الكرامة . داعياً إلى التعاطف بينهما والتراحم والتعامل برفق وإحسان .

(٢) العدل : الفدية .

(١) صرف : توبة .

ويعود إلى العلاقة بين الفرد وجماعته الكبرى من الأمة ، فيقرر أن المؤمنين إخوة ، لكل منهم على صاحبه ما للأخ على أخيه من التآزر والتعاون والتحاب ، فلا بطش ولا ظلم ولا نهب ، ولا حرب ولا سفك للدماء . وإنه لعهدٌ من نعمةٍ ضمه عاد كافراً آثماً قلبه . لقد انتهى عهد الحياة القبلية وكل ما اتصل بها من تنابد وتفاخر . فالتناس جميعاً لآدم ، ولا عربى عندنا ولا عربى قحطاني ، بل لا عربى ولا أعجمى . فقد وضعت موازين جديدة لحياة العرب ، فلم يعد التفاضل بالنسب والحسب ، إنما أصبح بالتقوى فهى معيار التفاضل . وبلغت الرسول سامعيه إلى ما قرره القرآن فى الميراث وأنصبتة . وأن للمورث أن يوصى بالثلث من ماله . ويُرسي قاعدة مهمة فى شرعية الأبناء ، وخاصة هؤلاء الذين تلدهم العواهر : فينسبهم إلى أصحاب الفراش ، وكانوا ينسبونهم إلى غير آبائهم ، وقد لا ينسبونهم أبداً ، فحرّم ذلك تحريماً باتاً . وبذلك قضى على نبالة النسب من جهة الختولة قضاء مبرماً .

وعلى هذا النحو كان الرسول صلوات الله عليه يبيّن فى خطابه حدود الحياة الإسلامية وما ينبغى أن يأخذ به المسلم نفسه فى علاقاته الكبرى مع أفراد أمته وعلاقاته الصغرى مع أسرته . فإن ترك ذلك فإلى وعظ المسلمين وما ينبغى أن يأخذوا أنفسهم به ، فى سلوكهم حتى تزكون نفوسهم ، وفى عبادتهم لربهم وتقواه حق التقوى حتى لا يزيغوا ولا ينحرفوا عن المحجة ، بل يتدرجوا فى مراقي الكمال الإنسانى .

وهذه الخطبة وسابقتها تصوران فى دقة حسن منطلق الرسول فى خطابه ، وأنه لم يكن يستعين فيها بسجع ولا بلفظ غريب ، فقد كان يكره اللوئين جميعاً من الكلام لما يدلان عليه من التكلف ، وقد برّاه الله منه إذ يقول فى كتابه العزيز : قل يا محمد : (وما أنا من المتكلمين) . والذى لا شك فيه أنه كان يبلغ بعته وقوى فطرته ما تنقطع دونه رقاب البلغاء . وقد وصف الجاحظ بلاغته فى خطابه أدق وصف ، فقال إنه : « جانب أصحاب التعميب (١) . واستعمل المبسوط فى موضع البسط والمقصور فى موضع القصّر ، وهجر الغريب الوحشى ،

(١) التعميب : التعمير وهو التكلم بأقصى

ورغب عن الهجين السوقي ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، لم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة ، وشُيِّدَ بالتأييد ، ويستتر بالتوفيق ، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته . لم تسقط له كلمة ، ولا زلَّت له قَدَمٌ ، ولا بارت له حجة ، ولم يتَقَمَّ له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل بيَّذَ الخطب الطوال بالكلم القِصار ، ولا يلتبس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يخرج إلا بالصادق ، ولا يطلب الفسَّاج^(١) إلا بالحق ، ولا يستعين بالخِلاية . . . ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أقصد لفظاً ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح معنى ، ولا أبين في فَحْوَى^(٢) ، من كلامه صلى الله عليه وسلم^(٣) . ونضيف إلى الجاحظ أنه عليه السلام هو الذي فتق معاني هذه الخطابة الدينية التي لم يعرفها العرب قبله ، فهو الذي رَسَمَهَا ، وفجَّرَ بنابيعها بحيث أصبحت مادة للخطباء من بعده ، وكأنا احتشد الكلم بأزمته إليه ، ليختار منه أفصحه وأسلسه وأبينه في الدلالة ، يسعفه في ذلك ذوق مرهف وحِسٌّ دقيق تبيينهما فيما روى عنه من قوله : « لا يقولنَّ أحدكم خَبِثَتْ نَفْسِي وَلَكِنْ لِيَقُلْ : لَنَقِيسَتْ نَفْسِي »^(٤) كراهية أن يضيف المسلم الطاهر إلى نفسه الخبث ، مما يدل على أنه لم يكن ينطق إلا باللفظ المختار البريء من كل ما يُسْتَكْرَهُ ، اللفظ الذي يجبُّ إلى النفوس لحلاوته وعذوبته وصفائه ونقاؤه .

٣

خطابة الخلفاء الراشدين

كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي في الذروة من الفصاحة والبلاغة : إذ سرى في نفوسهم بيان القرآن بتربيته وترهيبه وبيان الرسول بمواعظه وتشريعاته ، وتسرب هذا البيان إلى أجزاء نفوسهم وأخذ بمجامع قلوبهم .

(١) الفلج : الفوز . (٢) فحوى : دلالة .
(٣) البيان والتبيين ١٧/٢ . (٤) الحيوان ١/٣٣٥ ولقمت النفس غشت .

وكان أبو بكر أول من أسلم من الرجال ، وكان أحبَّ رفيق إلى الرسول وأصدق أصحابه به ، وقد نوّه القرآن بذكره . فقال جلَّ شأنه : (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسر) ، وفيه نزلت آيات أخرى . وهو خير من يمثل المسلم بأخلاقه وفضائله وحميته للدين وتأثره بهدى القرآن الكريم ورسوله تأثراً استحوذ على كل نفسه ، فإذا لسانه يتدفق تدفق السيل ، بما استشعر من معاني الإسلام وقيمه الروحية . وقد أثرت عنه خطبة كثيرة . تدل دلالة واضحة على شدة شكيمته في الدين ويقتضيه وصدق حسنه ، وأنه حقاً كان أجدر أصحاب رسول الله بخلافته . فمن ذلك أنه - لما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى واضطرب الناس وماجوا ، وقالوا وقال معهم عمر بن الخطاب : إن الرسول لم يمّت - أقبل فكشف عن وجهه ، فقيل له ، وقال : بأبي أنت وأمي طيبت حياً وطبت ميتاً . وخرج من عنده فيندر الصحابة بخطبته المشهورة^(١) التي قال فيها : « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت » ثم أخذ في بيان غلط من كذبوا موته محتجاً عليهم بمثل قوله تعالى : (إنك ميتٌ وإنيهم ميتون) ، وتلا : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم) ، ثم تلا : (كل نفس ذائقة الموت) ، ثم تلا : (كل شيء هاالك إلا وجهه) . فتاب من كذبوا موته رضوان الله عليه إلى رشدهم . ولم يلبث أن عرف أن الأنصار قد اجتمعوا إلى سعد بن عبد الله في سقيفة^(٢) بني ساعدة ، يقولون : منا أمير ومن قريش أمير ، فراعته ذلك وخشى على الأمة من الفرقة والطمع في الملك ، فبادر إليهم قبل أن يستحل الشر . وتبىه عمر وأبو عبيدة في نفر من المهاجرين . وهناك خطب في الأنصار ، فأثقتهم أن يجتمعوا على رجل من قريش ، وتمت البيعة له ، فخطب في الناس بعد أن حمّد الله وأثنى عليه وقال^(٣) :

« أيها الناس ! إني قد وليت عليكم ولست بخيركم . فإن رأيتموني على حق فأعينوني ، وإن رأيتموني على باطل فسدّدوني . أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم . ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ

(١) الطبري ٤٤٤/٢ وزهر الآداب ٣٠/١ . (٢) عون الأخبار ٢٣٤/٢ والطبري ٥٠/٢ .

(٣) الطبري ٤٤٥/٢ وما بعدها .

الحق له ، وأضعفكم عند القوى حتى آخذ الحق منه . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم » .

وأخذت تتجلى موافقه العظيمة وما ثرد الكريمة . فإنه أمر أن يخرج بعث أسامة إلى وجهته من حرب الروم كما أمر الرسول . وكان كثير من العرب قد منعوا الزكاة ، ومشي إليه كثير من المهاجرين والأنصار ، يقولون له لا قبيل لنا بحرب العرب ، فاقبل الصلاة منهم وأترك الزكاة . فقال قوله المأثور : « لو منعوني عقالاً (١) مما أعطوه النبي لجاهدتهم عليه . وجاهدهم بجيوشه ، حتى عادوا إلى الإسلام بعد ردّهم . وإذا أخذنا قرأ في خطبه وجدنا جمهورها وعظماً يستمد مادته من القرآن وكلام الرسول ، على شاكاة قوله في خطبة له (٢) :

« إن الله عز وجل لا يتقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه فأريدوا الله بأعمالكم ، واعلموا أن ما أخلصتم الله من أعمالكم فطاعة أتيتموها ، وحظ ظفرتم به ، وضرائب أدتدوها ، وسلف قدمتموه . من أيام فانية لأخرى باقية ، لحين فقركم وحاجتكم . اعتبروا عباد الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان قبلكم أين كانوا أمس وأين هم اليوم ؟ أين الجبارون ؟ . . أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط وجعلوا فيها الأعاجيب ؟ قد تركوها لمن خلفهم . فتلك مساكنهم خاوية . وهم في ظلمات القبور ، هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً (٣) . . ألا إن الله لا شريك له ، ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به حيراً ولا يصرف عنه به سوءاً إلا بطاعته واتباع أمره . واعلموا أنكم عبيد مدينون ، وأن ما عنده لا يدرك إلا بطاعته ، أما إنه لا خيرَ بخير بعده النار ، ولا شرَ بشر بعده الجنة » .

واستنّ بجانب مثل هذه الموعظة سنة الوصية للجيوش الفاتحة ، وهو في وصاياه يصدر عن روح الإسلام السمحة وتعاليمه السامية في معاملة المسلمين لمن يغلبون عليهم ، إذ يطلب إليهم أن لا يخونوا ولا يغدروا ولا يمثلوا بقتيل ولا يقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا يفسدوا زرعاً ولا يستحلوا مالا، إلا

(٣) الرکز : الصوت الخفى .

(١) المقال هنا : كناية عن البعير .

(٢) الطبرى ٢ / ٤٦٠ .

لأكلة ولا يتعرضوا لرهبان النصارى ، وتصوّر ذلك كله وصيته لجيش أسامة بن زيد حين سيره إلى مشارف الشام ، وفيها يقول ^(١) :

« أيها الناس! قِفُوا أوصيكم بعشر ، فاحفظوها عنى : لا تخونوا ولا تتعدّوا ^(٢) ، ولا تغدروا ، ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تنقروا ^(٣) نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تدبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكلة . وسوف تمرّون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .

وواضح مما تمثّلنا به من خطابة أبي بكر أنه لم يكن يلهج بسجع ، إنما كان يلهج بكلم فصيح جزل واضح الدلالة عما في نفسه . وكان يتخير لفظه ، وربما كان من الأدلة على ذلك ما يروى من أنه عرض لرجل معه ثوب ، فقال له : أتبيع الثوب ؟ فأجابته : لا ، عافاك الله . فتأذى أبو بكر بما يوهمه ظاهر اللفظ إذ قد يُظنُّ أن النبي مسلط على الدعاء ، فقال له : لقد علمتم لو كنتم تعلمون ، قل : لا ، وعافاك الله ^(٤) .

وكان من صواب رأيه وصحة فراسته اختياره عمر خليفةً من بعده ، وكان على شاكلته نفاذ بصيرة وصدق عزم وبلاغة لسان ، كما كان صفيّ رسول الله . وقد أعزّ الله به الإسلام في مكة حين أعلن ولاءه لرسوله . وما زال منقطعاً إليه والرسول يقرُّ به منه ويتخذة موضع مشورته ، حتى توفي وخلفه أبو بكر ، فكان له نعم الظهير والمعين . ولما أُسندت إليه مقاليد الخلافة نهض بها في رجاحة عقل ، حتى إن أحداً لم يردّ عليه رأياً واحداً ولا عملاً واحداً ، وما زال يوطئ الأمر بسعة حلم وشدّة عزم ، مجتهداً للأجناد ، حتى فتحت فارس وتمّ فتح الشام وفتحت مصر ، وهو على ذلك كله نعم الكاليء والحافظ لرعيته . وكان بيانه في مقدار عقله قوةً وسداداً ، إذ كان في مرتبة رفيعة من البلاغة والفصاحة ، حتى قالوا إنه كان يستطيع أن يخرج الضاد من أى شدّقيه شاء ^(٥) : فما هو إلا

(٤) البيان والتبيين ١/٢٦١ .

(٥) البيان والتبيين ١/٦٢ .

(١) الطبرى ٢/٤٦٣ .

(٢) تغلوا : تخونوا في الشيء .

(٣) تقمروا : تسناصلوا وتقطموا .

أن يقف بين الناس واعظاً أو يقوم في الجنود ناصحاً حتى يتهمد بكلامه، وحتى تنصاع له القلوب انصياعاً ، ونحن نكتفي بقوله في إحدى مواضعه (١):

« إن الله سبحانه وبجمده قد استوجب عليكم الشكر ، واتخذ عليكم الحجج فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا من غير مسألة منكم له ولا رغبة منكم فيه إليه فخلقكم تبارك وتعالى ، ولم تكونوا شيئاً ، لنفسه وعبادته... وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنة ، وحملكم في البر والبحر ، وزرقتكم من الطيبات لعلكم تشكرون . ثم جعل لكم سمعاً وبصراً . ومن نعم الله عليكم نعم عمّ بها بنى آدم ، ومنها نعم اختص بها أهل دينكم ، ثم صارت تلك النعم خواصها وعوامها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم ، وليس من تلك النعم نعمة وصلت إلى امرئ خاصة إلا لو قُسم ما وصل إليه منها بين الناس كلهم أتعبهم شكرها ، وفادحهم حقها إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله ، فأنتم مُسْتَحْلِفُونَ في الأرض ، قاهرون لأهلها ، قد نصر الله دينكم . . . والله المحمود مع التوح العظام في كل بلد . . . فنسأل الله الذي لا إله إلا هو الذي أبلانا هذا أن يرزقنا العمل بطاعته والمسارعة إلى مرضاته » .

وسار سيرة أبي بكر في تشييع الجيوش بالخطابة محرّضاً على الجهاد، حتى ينتشر الدين الخنيف في أقطار الأرض ، وهو ان ينتشر إلا بالقوة التي تُعزّز الحق وتُعلى سلطانه . إنها معركة الإسلام ، معركة النفوس المؤمنة التي وعدّها الله أن ترث الأرض ومن عليها . وما زال عمر يُبرز هذه المعاني محاولاً أن يرتفع العرب في جهادهم عن ضعف المخاوق ، ويصبحوا قوة من قوات الخالق ، يقول في بعض هذه الخطب (٢):

« أين الطّراء (٣) المهاجرون عن موعود الله ؟ سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها ، فإنه قال : (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) والله مظهر دينه ، ومعزّز ناصره ، ومُؤَلِّ أهلكه مواريت الأمم ، أين عباد الله الصالحون؟ » .
ولما اجتمع الجيش أمر عليه أول من أجابه حينئذ إلى الجهاد، وهو أبو عبيد بن مسعود ، وقال له : « اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشركهم

(٣) الطراء : الذين خرجوا عن ديارهم .

(١) الطبرى ٢٨٣/٣ .

(٢) الطبرى ٦٣١/٢ .

في الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين ، فإنها الحرب ، والحرب لا يُصلحها إلا الرجل المتكثف^(١) الذي يعرف الفرصة والكف .

وتوفى عمر ، فخلفه عثمان ، وكان يهبط درجة عنه وعن أبي بكر في الفصاحة والبيان . ويروى أنه أُرْتِج عليه يوماً وقد أراد الخطابة في الناس فقال : « إن أبا بكر وعمر كانا يُعَدَّان لهذا المقام مقالا ، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب » . وليس معنى ذلك أنه كان يُرْتِجُ عليه دائماً ، فقد كان يُخَطَبُ أحياناً ، فيملأ النفس بمواعظه ، على شاكلة قوله حين بايعه أهل الشورى والناس^(٢) :

« إنكم في دار قُلُوعَةٍ^(٣) وفي بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أُتِيتُمْ ، صُبِّحْتُمْ أو مُسِّتُمْ . ألا وإن الدنيا طُوبِيت على الغرور ، فلا تغرَّتْكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنَّكم بالله الغرور . اعتبروا بمن مضى ثم جِدُوا ولا تغفلوا ، فإنه لا يُعْغَفَلُ عنكم ، أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين آثروها وعَمَرُوها ومَتَّعُوا بها طويلاً ؟ ألم تَلْفِظْهُم ؟ ارموا بالدنيا حيث رَمَى الله بها ، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلاً ، فقال عَزَّ وَجَلَّ : (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هَشِيمًا تَذَرُوهُ الرياح وكان الله على كل شيء مُقْتَدِرًا ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً) » .

وامتحن في آخر أيامه بالثورة عليه ، فلم تنحرف نفسه ، بل ظل صابراً يتلو القرآن ويدعو الناس إلى أن لا يُحَدِّثُوا فَتَنَ قَوْمَهُمْ هذه الفرقة ، وهو في أثناء ذلك يعظهم أن لا تُبْطِرْهُم الدنيا وأن يؤثروا ما بقى على ما يفنى فيلزموا الجماعة ، ولا يتخاذلوا فيصبحوا أحزاباً .

وولى على الخلافة من بعده ، والفتنة تموج بالناس ، وطلحة والزبير والسيدة عائشة يؤلِّبون عليه أهل البصرة ومعوية يؤلب أهل الشام ، فاصطدم بهم جميعاً ، وانتقل إلى الكوفة يجمع الناس ويحاربهم .

(١) المكثف : الرزين المتبصر في الأمور . (٢) قلعة : انقلاع أى أنها لا تدوم .

(٣) الطبرى ٣/٣٠٥ .

وانتصر على الثلاثة الأولين ، ودخل مع معاوية في حروب صيفيين . ثم كانت خُدعة التحكيم : وخرج عليه فريق من جيشه ، فاضطُرَّ إلى حربه ، وهو في كل ذلك يخطب واعظاً حيناً وداعياً إلى جهاد خصومه حيناً آخر . وكان خطيباً منوِّداً لا يُشَقُّ غُبارُه ، ومن مواعظه قوله (١) :

« إن الدنيا قد أدبرتْ وآذنت بoudاع ، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع ، وإن المصمار (٢) اليوم والسباق غداً . ألا وإنكم في أيام أمل من ورائه أجل ، فمن أخلص في أيام أمه قبل حضور أجله فقد نفعه عمله ، ولم يتضرره أمه ، ومن قصر في أيام أمه قبل حضور أجله خسر عمله ، وضربه أمه ، ألا فاعملوا لله في الرغبة ، كما تعملون له في الرَّهْبَة ، ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبها ، ولا كالنار نام هار بها ! »

وطبيعي أن تكثُر خطبه في حروب خصومه ، وقد ظل نحو أربع سنوات يجاهدهم ويخطب في أصحابه حائثاً لهم على الجهاد ، ومن قوله في خطبة (٣) له بأخيرة من أيامه وقد تقاعس بعض جنده وأخذت جنود معاوية تغير على أطراف العراق .

« إن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشله البلاء ، ولزمه الصغار ، وسيم الحسف ، ومنع النصف (٤) . ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً ، وقلت لكم : اغزؤهم قبل أن يغزؤكم ، فوالله ما غزى قوم قط في عُقر دارهم إلا ذلوا ، فتواكلتم وتحاذلتم ، وثقل عليكم قولي ، واتخذتموه وراءكم ظهيرياً ، حتى شنت عليكم الغارات ... فيا عجبا من جد هؤلاء القوم في باطلهم ، وفشلكم عن حركم ... حتى صرتم هدفاً يرمى وفيئاً ينشتهب ، يُغار عليكم ولا تغيرون ، وتغزون ولا تغزؤون .. قد وررَيْتم (٥) صدرى غيظاً ، وجسرت عثموني الموت أنفاساً (٦) ، وأفسدتم على رأبي بالعصيان والحيدلان » .

(٥) وررَيْتم : ملائمتهم ، وأصله من ورى القيع

جوفه إذا أكله .

(٦) الأنفاس : جمع نفس بالتحريك ،

وهو الجرعة من الماء ونحوه .

(١) البيان والتبيين ٥٢/٢ .

(٢) المصمار : الزمن الذي تنصر فيه الخيل

للسباق وكذلك الموضع .

(٣) البيان والتبيين ٥٣/٢ .

(٤) النصف : الإنصاف .

وقد خُتِفَ على خطباً كثيرة ، نجد منها أطرافاً في البيان والتبيين وعيون الأخبار والطبري . على أنه ينبغي أن نقف موقف الحذر مما يُنسَبُ إليه من خطب في الكتب المتأخرة وخاصة نهج البلاغة فإن كثرت ووضعت عليه وضعاً . وقد تنبّه إلى ذلك السابقون^(١) ، واختلفوا في واضعها ، هل هو الشريف المرتضى أو الشريف الرضى ، وقد توفّي أولهما سنة ٤٣٦ للهجرة بينما توفّي الثاني سنة ٤٠٦ . ومن يقول بأنه الشريف المرتضى الذهبي في ميزان^(٢) الاعتدال وابن حجر العسقلاني في لسان الميزان^(٣) . وذهب النجاشي المتوفى سنة ٤٥٠ للهجرة في كتابه « الرجال » إلى أن مؤلف الكتاب هو الشريف الرضى^(٤) ، وأقرّ هو نفسه بذلك ، إذ ذكر في الجزء الخامس المطبوع من تفسيره أنه هو الذي ألفه ووسّمه باسمه : نهج البلاغة^(٥) ، وذكر ذلك أيضاً في كتابه « مجازات^(٦) الآثار النبوية » . والمظنون أن الوضع على عليّ قديم . فقد ذكر المسعودي في مروج الذهب أن له أربعمائة خطبة ونيفاً وثمانين يتداولها الناس^(٧) .

ولعل في ذلك ما يدلُّ على وجوب التحرز والتثبت فيما يضاف إليه من خطب ، وأن لا نعول على شيء منها إلا إذا جاء في المصادر القديمة التي أشرنا إليها . وإن ما جاء فيها لكاف في تصوير قدرته الخطابية وإحسانه إحساناً كان يجلب ألباب سامعيه ويؤثر في نفوسهم تأثيراً عميقاً .

وواضح من كل ما قد منا كيف ارتقت الخطابة في هذا العصر ، وكيف تحولت إلى وعظ الناس وإرشادهم لما فيه كمالهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة ، وقد أخذت ميادينها تتسع باتساع السيادة على الشعوب المفتوحة ، كما أخذت

-
- | | |
|---|---|
| (١) انظر ترجمة الشريف المرتضى في ابن خلكان ، وراجع مرآة الجنان للياقبي ٥٥/٣ . | (٤) كتاب الرجال (طبعة بومباي) ص ١٩٢ ، ٢٨٣ . |
| رشذرات الذهب لابن العماد ٢٥٧/٣ . | (٥) الجزء الخامس من حقائق التبريل للشريف الرضى (طبعة النجف) ص ١٦٧ . |
| (٢) ميزان الاعتدال (طبعة لكهنو) ٢٠١/٢ . | (٦) مجازات الآثار النبوية (طبع بغداد) ص ٢٢ ، ٤١ . |
| (٣) لسان الميزان (طبعة حيدر آباد) ٢٢٣/٤ . | (٧) مروج الذهب (طبعة باريس) ٤٤١/٤ . |

تشعب منذ فتنة عثمان شعباً كثيرة ، منها ما يتصل بالجهاد والحرب ، ومنها ما يتصل بالمناظرة في الآراء السياسية المتعارضة بين علي وخصومه القرشيين من جهة ثم بينه وبين الخوارج من جهة أخرى . وهى فى كل ذلك تستمد من القرآن وخطابة الرسول وأحاديثه ، تستمد المعانى وتستمد الأساليب ذات البهاء والرونق .

٤

الكتابة

نوه الإسلام بالكتابة وفضلها منذ أول آية نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال جلَّ شأنه : (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلقت الإنسان من علق) ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) . ومن تمام هذا التنويه القسّم بالقلم فى قوله تعالى : (ن والقلم وما يسطرون) وبالكتاب فى قوله سبحانه : (والطور وكتاب مسطور فى رق منشور) . وتتردد فى القرآن كلمات اللوح والقرطاس والصحف فى مثل قوله تبارك وتعالى : (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) ، وقوله : (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس) وقوله : (رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة) .

وعمل الرسول عليه السلام جاهداً على نشر الكتابة بين أصحابه ، حتى لزاره يجعل فداء بعض أسرى قريش ممن حذقوا الكتابة عشرة من صبيان المدينة^(١) ، وقد حثَّ القرآن على استخدامها فى المعاملات ، يقول عزَّ سلطانه : (يا أيها الذين آمنوا إذا تدابرتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق) . ومن غير شك كانت هى الوسيلة إلى نشر القرآن وتعلمه ، فقله كان الصحابة يكتبونه ، حتى يتحفظوه .

(١) طبقات ابن سعد ج ٢ ق ١ ص ١٤ .

وكان هناك جماعة من الكتّاب يكتبون آياته - كما قدّمنا - بين يدي الرسول من مثل عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وأبى بن كعب وزيد ابن ثابت . وكان يكتب له في حوائجه خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية ابن أبي سفيان . وكان يكتب ما بين الناس المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير ، كما كان يكتب بينهم في قبائلهم ومياهمم عبدالله بن الأرقم والعلاء بن عقبة الحضرمي . وكان حنظلة بن الربيع يخلف كل كاتب من كتّاب الرسول إذا غاب ، فغلب عليه لقبُ الكاتب^(١) .

ومعنى ذلك كله أن الكتابة أخذت منذ هذا العصر تُستخدّم على نطاق واسع لا في كتابة القرآن فحسب ، بل في كتابة كل ما يهمّ المسلمين في معاملاتهم وعقودهم . وكان الرسول عليه السلام يستخدّمها في جميع مواعيقه وعهوده ، وكذلك كان الخلفاء الراشدون من بعده ، وتكتظ كتب الحديث والتاريخ والأدب بهذه العهود والمواثيق ، سواء منها ما كان على لسان الرسول وما كان على لسان خلفائه . وقد استطاع محمد حميد الله الحيدر آبادي أن يجمع طائفة ضخمة منها سماها « مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة » وقد قدم لها بحث عن مقدار الثقة بها ، وجمهورها مما لا يرقى إليه الشك . وهي تفتتح بالكتاب الذي كتبه الرسول حين نزل المدينة بين المهاجرين والأنصار واليهود المقيمين بها . ونقف قليلا عند هذا الكتاب لنبين أهمية هذه الوثائق ومدى تطویرها للنثر الكتابي عند العرب ، فقد أخذ هذا النثر يحمل تشريع دولة الإسلام الجديدة وما يُطوّى فيه من تعاليم الدين الحنيف وحدوده وفرائضه وأول ما يلقانا في هذا الكتاب أن جميع أهل يثرب : « أمة واحدة من دون الناس » وهي أمة لا ترتبط بروابط النسب المعروفة في القبيلة وإنما ترتبط بروابط الدين . وعلى هذه الأمة أن تتعاون ضد كل من يبغى عليها منها أو من غيرها ، وأن تكفل في داخلها مبادئ السلام كما تكفل حماية الحار ونصرة المظلوم . ومن تبعها من غير دينها له النصرة والأسوة إلا من ظلم وأثم . وهي أمة

(١) الوزراء والكتاب للجهشياري (طبعة الحلبي)

يعلوها سلطان الله الذي يُردُّ إليه وإلى رسوله كل اختلاف وكل حدث أو اشتجار يُخاف شره .

والكتاب بذلك كله يرينا تكوين الجماعة الإسلامية والعلاقات التي تربط بين أفرادها، وهو يوضح هذه العلاقات في داخل العشائر كدفع الدية والولاء ، كما يوضح العلاقات بين أعضاء الجماعة الكبرى التي يُشرف عليها الله ورسوله ، وهي علاقات وثقتها روابط الدين وثيقاً شديداً ، بحيث أصبح كل ما يدعو إلى اشتجار مردّه إلى هذا الدستور الديني الجديد، الذي يُلغى الفوارق القبلية ، ويقم العدل والمساواة ، ولا يدع للناس حق الأخذ بالثأر ، بل يرده إلى الله ورسوله ، فلا تُأر بجر ثأراً بل عقاب عادل بالمثل في القتل وغير القتل .

ونمضي في تلك الوثائق فنقرأ المعاهدة التي كتبها الرسول بينه وبين قريش عام الحديبية^(١) والتي نصّت على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، ذمة لا تنكث « وأنه من أحبّ أن يدخل في عقد محمد وعهده دخله ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه » . ونقرأ بعد ذلك كتابه إلى يهود خيبر ثم قسمة أموالها . وتتوالى كتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والتصديق برسالته ، ومن دعاه النجاشي ملك الحبشة وهرقل ملك الروم والمقوقس صاحب مصر . وكما يكتب إلى الملوك يكتب إلى أساقفة الشام وأمراؤها وولاة شرق الجزيرة من قبيل كسرى ، وكذلك جنوبيها . وقد يكتب إلى القبائل نفسها . وتلقانا معاهدته مع أهل نجران^(٢) ، وفيها يبيّن ما عليهم من خراج ثم يقول : « ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وملتهم وغائبهم وشاهدتهم وعشيرتهم وبيعتهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير . ولا يُغيّر أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته . وليس عليهم دية ولا دم جاهلية .. ومن سأل منهم حقاً فينبهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين » . وعلى هدى هذا الكتاب كانت كتب أبي بكر وعمر التي كتبها إلى أهل البلاد المفتوحة . وتلقانا بعد ذلك عهده إلى الأمراء الذين ألقاهم على إماراتهم في

(١) مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي

والنثر ص ١٣

والخلافة الراشدة (طبع لجنة التأليف والترجمة

(٢) مجموعة الوثائق السياسية ص ٨٠ .

القبائل وفي اليمن ، كما تلقانا عهوده إلى من كان يُرسل بهم لتعليم الناس في آفاق الجزيرة شئون دينهم ، وما ينبغي أن يأخذوه منهم من الزكاة ، وقد يرسل بذلك إلى بعض أمرائهم . ومن خير ما يصور هذه العهود كتابه^(١) إلى عامله باليمن ، وفيه يأمره بتقوى الله والأخذ بالحق وأن يعلم الناس القرآن ويفقههم فيه كما يعلمهم أوامر الدين ونواهيه وما فرض عليهم من الحج إلى بيته المقدس ومن الصلاة ، وإيتاء الصدقات ويرسم له حدودها على الزروع والثمار والأنعام والأغنام وأن من زاد خيراً فهو خير له .

وعلى هذا النحو اتسعت الكتابة على عهد الرسول ، إذ أصبحت تؤدّي تعاليم الدين الحنيف ، وكل ما أقامه لصالح الجماعة الإسلامية وسعادتها ، وكل ما فرضه من معان إنسانية في معاملة من يدخلون في لوائه وفي ذمة الله وعقده .

ويتولّى أبو بكر الصديق مقاليد خلافة الرسول . ويرتد كثير من العرب ، فيجند لهم الجيوش ويبعث مع قادتها بكتاب مفتوح يدعو الناس فيه إلى الاعتصام بدين الله وأن من استجاب وكفّ وعمل صالحاً قُبِلَ منه وأُعين عليه ، ومن أبى فلن يُعجز الله وقول حتى يُقرّ بالحق . وأتبع ذلك بعهد لأمرء الأجناد ضمّته نفس هذه المعاني وأن يستوصوا بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول . وما زال يتراسل معهم حتى رُتِبَ الصدع . وتتحول الأجناد بأمرائها إلى الفتوح ، فيكتب لهم ناصحاً على نحو ما كتب لخالد بن الوليد^(٢) . وتلقانا له منذ هذا التاريخ كتابات وعهود مختلفة كان يرسل بها إلى رؤساء الأجناد في البلاد المفتوحة . وكان آخر ما كتبه عهده لعمر ، وفيه يقول : « إني استعملت عليكم عمر بن الخطاب فإن برّ وعدك فذلك علمي به ورأى فيه ، وإن جار وبدل فلا علم لي بالغيب . والخير أردت ، ولكل امرئ ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون » .

وولّى عمر ، فتمت في عهد فتح إيران والشام ومصر ، ومع كل بلد تُفتَحُ كان أمرء الأجناد يكتبون لأهلها العقود والعهود ، وكان عمر لا يني

(٢) مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٢٧ .

(١) مجموعة الوثائق السياسية ص ١٠٤ .

عن مراسلتهم في كل ما يهم من الأمر ، سواء فيما يتصل بالحرب وتنظيم الجيوش أوفيا يتصل بمعاملة أهل البلاد المفتوحة وما يُعطى لهم من عهود، وعهده لأهل إيليا (بيت المقدس) الذي أشرنا إليه في غير هذا الموضع مشهور، وفيه يقول (١) :

« هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان : أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها : أنه لا تُسكَنُ كنائسهم ولا تُهدَم ولا يُسْتَقَصُّ منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يُكْرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيليا أن يُعطوا الجزية .. وعلى ما في هذا الكتاب عهدُ الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين » . وواضح أن عمر ترسّم في هذا العهد عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لنصارى تجران . وعلى نحو ما كان يستلهم صنيع الرسول في عهده كان يستلهم وصاياه لولاته في سياسة الناس ومعاملتهم بإحسان ، ومن خير ما أثر عنه في هذا الجانب رسالته إلى أبي موسى الأشعري واليه على البصرة ، وهي تمضى في البيان والتبيين على هذا النحو (٢) :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أُدلى إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له . آس بين الناس في مجلسك ووجهك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا يخاف ضعيف من جورك . البيّنة على من ادّعى ، واليمين على من أنكر . والصلح جائر بين المسلمين إلا صلحاً حراماً حلالاً أو أحلاً حراماً . ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك ، وهُديت فيه لرشك ، أن ترجع عنه إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى في الباطل . الفهم الفهم عند ما يتلجج في صدرك ، مما لم يبلغك في كتاب الله ولا في سنة النبي صلى الله عليه وسلم . اعرف الأمثال والأشياء ، وقس الأمور عند ذلك ، ثم اعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى . واجعل للمدعى حقاً غائباً أو بيّنة أمدأ ينهى إليه ، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا وجهت عليه القضاء ، فإن ذلك أنى للشك

(١) مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٦٨ . (٢) البيان والتبيين ٢ / ٤٨ وما بعدها .

وأجلى للعمى وأبلغ في العذر . المسلمون عدولٌ بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حدّ أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنّيناً^(١) في ولاء أو قرابة ، فإن الله قد تولى منكم السرائر ، ودرأ عنكم بالبيّنات والأيمان . ثم إياك والقلق والضجر والتأذّي بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحق ، التي يُوجب الله بها الأجر ، ويُحسن بها الذخّر ، فإنه من يُخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ، ولو على نفسه يكفّه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزيّن للناس بما يعلم الله منه خلاف ذلك هتك الله سيّره وأبدى فعله . والسلام عليك .

والرسالة وثيقة مهمة فيما ينبغي أن يكون عليه الحاكم قاضياً أو غير قاض من الرفق برعيته ومعاملة جميع أفرادها على قدم المساواة . وعمر يضع فيها أسس النظر في الادعاء وفي الصلح بين المتخاصمين ، ويفتح الباب واسعاً أمام من يقضى في شأن من شئون الرعية ويتبين خطأ قضاائه أن يرجع فيه . وما يلبث أن يضع للحاكم الأصول التي يصدر عنها في أحكامه ، وهي الكتاب والسنة فإن لم يجد فيهما ما يُنير له الحكم اجتهد برأيه معتمداً على القياس . ويجعل للمدعى أمداً ينهى إليه . ويقول إن الأصل في المسلم أن يكون عدلاً ، إلا أن تستنق عدالته فلا تصح شهادته . ويوضّح للحاكم قاضياً أو غير قاض موقفه من الخصوم فلا يتأذّي بهم ولا يتنكر لهم . وقد ترك وصية^(٢) للخليفة من بعده تُعدّ دستوراً رفيعاً للحكم ، سواء فيما يتصل بحكم المسلمين أو حكم أهل الذمة وما ينبغي أن يؤخذوا به من الرفق .

وفي الحق أننا لا نصل إلى عهد عمر حتى تصبح الكتابة جزءاً أساسياً في أعمال الدولة ، وحتى تتضمن كل تعاليمها وكل ما رسمته للمسلمين وأهل الذمة من العلاقات السياسية والاقتصادية في الخراج وقسمة الغنائم وكل ما يتصل بالأنظمة في الشعوب المفتوحة . وعمر في ذلك كله يستلهم القرآن والسنة النبوية ، ويستشير أصحابه في كل ما يأخذ من أمر ويتدع ، وهو في ثنايا ذلك يجتهد ويفتح الباب لاجتهاد أصحابه . فإذا قلنا بعد ذلك إن الكتابة رقيت في العصر رقياً بعيداً لم تكن مغالين . إذ وسّعت كل الحاجات السياسية التي جدّت ،

(١) ظنينا : متباً .

(٢) البيان والتبيين ٤٦/٢ .

وكل ما أُعطى للمسلمين المحاربين والشعوب المفتوحة من حقوق .

وقد مضى فاتحو الثغور في عهد عثمان يكتبون عهودهم لمن يغلبون عليهم أو يدخلون في طاعتهم دون حرب مقتدين بما رسمت العهود في عهد عمر وأبي بكر ، وكان عثمان يكتب أحياناً إلى ولاته في الحرب والسلام . وخلفه على فكرت الحاجة بحكم حروبه إلى مكاتبات مختلفة بينه وبين الخارجين عليه . ومن أهم ما كتب حينئذ وثيقة^(١) التحكيم بينه وبين معاوية .

وواضح من ذلك كله أن الكتابة تطورت تطوراً واسعاً في هذا العصر ، فقد تعددت الموضوعات التي تناولتها والتي لم يكن للعرب بها عهد قبل الإسلام ورسالة صاحبه النبوية ، إذ أخذت تحمل مجموع النظم الجديدة التي قامت عليها دولة الإسلام العتيدة . وكان الرسول عايمه السلام هو الذي بذلها لتحمل هذه النظم ، وخلفه عليها قواد الجيوش في عهودهم للبلاد المفتوحة وخلفاؤه الذين فصلوا هذه النظم وطابقوا بينها وبين حاجات المسلمين من جهة وحاجات من غابوا عليهم من جهة أخرى . ولعمراً من بينهم في ذلك القيد المعلى إذ ساعدت كتبه الكثيرة في الفتوح وإلى الولاة على أن ينال النثر الكتابي كل ما كان ينتظره زمن الخلفاء الراشدين من تطور ونهوض .

(١) مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٨١ .